

الزوايا الصوفية ودورها الحضاري في محاربة التطرف في منطقة الساحل الإفريقي Sufi Lodges and thier Civilizational Role in Combating Extremisme in the Region of African Sahel

العراجي عبد الكريم¹

¹ جامعة وهران 2 محمد بن أحمد

تاريخ الاستلام: 2025-07-17 تاريخ القبول: 2025-12-01 تاريخ النشر: 2025-12-20

ملخص :

تعتبرُ الزوايا الصوفية بمثابة مؤسسات روحية ذات بعد ثقافي، و اجتماعي من خلال ما تقدمه من خدمات للمجتمع، ومؤسساته، ومدى مساهمتها في تحقيق الأمن والاستقرار والتنمية. في هذه الورقة البحثية سنسعى لدراسة الزوايا، باعتبارها مؤسسة دينية تساهم في إنتاج إسلام وسطي. يمد جسور العلاقات بينه، وبين الديانات الأخرى عن طريق الدبلوماسية الروحية، ودورها الحضاري في محاربة الفكر الأصولي المتطرف، في منطقة الساحل التي لا تزال تعاني من الصراعات، والانقلابات العسكرية، التي تعيق بناء مشروع الدولة، وتحقيق الرفاهية لشعوب المنطقة.

كلمات مفتاحية: الزوايا الصوفية ، الإسلام الوسطي، التطرف، منطقة الساحل. الإفريقي

Abstract:

Sufi Lodges are considered as spiritual institutions holding a cultural and social dimension through the services they provide to society and its institutions in addition to their contribution to achieving security, stability and development. In the present research paper, we seek to study the brotherhoods as a religious institution that contributes to the production of a moderate Islam that builds bridges of relations with other religions. Through spiritual diplomacy and its civilizational role in combating extremist fundamentalist thought in the Sahel region, which is still suffering from conflicts and military coups that hinder the construction of the state project and achieving well-being for the peoples of the region.

Keywords: Sufi Lodges, extremism, moderate Islam, African Sahel.

1. مقدمة:

تعدُّ الزوايا الصوفية، من أهم المؤسسات الدينية الفاعلة في منطقة الساحل الإفريقي، وهذا ما ساهم في تجذّر التصوف وانتشاره، كمنهج في التديُّن والتعبُّد، مما فتح المجال أمام التعددية الطُرقية، زيادة على إسهامات المشايخ الذين حملوا على عاتقهم راية الإصلاح، ونشر تعاليم الدين الوسطي، وأفكار المذهب المالكي على يدي كل من الشيخ المغيلي التلمساني (توفي عام 1505) والشيخ سيدي المختار الكنتي (توفي

عام 1811)، والذان بدورهما عملوا على غرس الأفكار الدينية، الإصلاحية نتيجة الفراغ الروحي الذي أفرزه سقوط مملكة السنغاي في مالي.

ومع بروز الأزمات السياسية، في منطقة الساحل الإفريقي، ظهرت الحاجة إلى الزوايا الصوفية باعتبارها مؤسسات دينية ذات طابع اجتماعي، ما جعلها تكون ملتزمة، بمواجهة التطرف الذي كان بمثابة نتيجة حتمية، فرضتها الصراعات السياسية، حيث تمكنت بعض الجماعات المتطرفة من السيطرة على أقاليم مهمة في المنطقة الساحل الإفريقي، وفرضت انتشارها و تأثيرها على شعوب المنطقة بسبب تلاشي مشروع الدولة وغياب الأمن، ما جعل من الزوايا الصوفية، أن تكون مطلب وطني لشعوب المنطقة من أجل تحقيق الوحدة الوطنية، والحفاظ على سيادة الدول في منطقة الساحل الإفريقي.

هذه الورقة تستهدف الأدوار، والإسهامات التي تقوم بها الزوايا في منطقة الساحل الإفريقي، من أجل محاربة التطرف، الذي تسبب في تفاقم الأزمات السياسية، وتدهور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، ومحاربه لا تكون، إلا وفق آليات حضارية تساهم في تقليص نفوذه، وتطرح بدائل تساهم في إنتاج إسلام وسطي، نابذ للعنف محب للسلام ومحقق للتنمية والاستقرار.

تتمحور إشكالية الورقة حول عدة تساؤلات، تتعلق بوظيفة الزوايا الصوفية ودورها الحضاري، في محاربة التطرف. وما هي الإستراتيجيات التي ستعتمد عليها؟ ومن هنا سنواجه هذه التساؤلات الفرعية وهي كالآتي: ما هي الأطر التي تأسست عليها الزوايا الصوفية في منطقة الساحل الإفريقي، وما هي السياقات التي سمحت بنشأتها؟ ما هي الآليات التي تعتمدها الزوايا في دورها الحضاري من أجل محاربة التطرف؟

وما مدى فعالية الدبلوماسية الروحية، في تفعيل دور الزوايا الصوفية، وفق مقاربات تساهم في تقليص مجالات نفوذ التطرف؟ وبناء على هذه التساؤلات، التي تبين أهمية الزوايا الصوفية، في محاربة التطرف في ظل التحولات التي تشهدها منطقة الساحل الإفريقي. ومن هنا سيكون السؤال المحوري لإشكالية الدراسة وهو كيف يساهم الدور الحضاري للزوايا الصوفية في محاربة التطرف في منطقة الساحل الإفريقي؟ هذه التساؤلات سنحاول الإجابة عنها في عناصر الدراسة، حيث قمنا بتبني فرضية عامة أساسية مفادها أن الدور الحضاري للزوايا مرهون بتبنيه آليات، وإستراتيجيات تمكنه من محاربة التطرف في منطقة الساحل الإفريقي.

سوف نعتمد في ورقتنا على المقاربة الوظيفية، حيث ستفسر الدور الحضاري الذي تقوم به الزوايا الصوفية في محاربة التطرف، ومدى فعاليتها في التعامل مع الظاهرة الدينية المتطرفة، وكيفية مواجهتها عن طريق تدوين عقلائي منفوح، في ظل تصدعات سياسية تعيشها منطقة الساحل الإفريقي.

2. الإطار الحضاري والثقافي المؤسس للزوايا الصوفية في منطقة الساحل الإفريقي:

في هذا السياق لا يمكن الحديث أو الغور في أعماق البعد الوظيفي الروحي للزوايا الصوفية، كوسيط حضاري بين الشعوب، والأديان، وذلك في صورتها المؤسساتية التي تتجسد في المؤسسة الدبلوماسية باعتبارها ناقلا للقيم الحضارية ومسوقا لأفكار السلم، والمحبة، والتعايش، دون التطرق إلى الإطار الحضاري، والثقافي للزوايا في منطقة الساحل الإفريقي، ومن هنا يجب أن نتبع المسار التكويني الذي ساهم في تشكل هذه المؤسسات الروحية، وسنركز في هذا السياق على مفهوم المؤسسات بحكم نشأتها ووظيفتها.

1.2 المسار والتأسيس:

الزوايا في الساحل الإفريقي، والجزائر بصفة خاصة لم تكن مجرد ملجئ للدراويش، والزهاد، والناسكين بل كانت مؤسسات تربوية تعليمية (الله، 1998) تدرّس فيها قواعد اللغة العربية، ومبادئ الشريعة، وأساليب قراءات القرآن، وهذا البعد الوظيفي هو الذي جعلها تتبنى، وتستوفي شروط، ومعايير المؤسسة بحكم العمر التاريخي لهذه الزوايا التي لا تزال مؤسسات قائمة إلى يومنا هذا؛ بحكم كونها حواضر قرآنية تحولت إلى مراكز روحية، وثقافية تعد بمثابة شاهد تاريخي على الدور الحضاري المنوط بها.

هذه العوامل الاجتماعية التي عايشتها الزوايا؛ وهي في مرحلة التأسيس جعلتها تتبوأ مهمة التدريس، والتعليم والتربية في المجتمع الإسلامي لأن التصوف في الساحل كان بمثابة ثورة علمية، وروحية قام بها رجال التصوف عن طريق تأسيس الرباطات، والأخويات، والزوايا من أجل تفعيل التعليم الصوفي المؤسس على قيم الإحسان، والتسامح، والمحبة كالطريقة الحموية التي تأسست في الساحل الإفريقي (الأمين، 2019)، والتحديات التي كانت تواجه الزوايا في تلك الفترة لم تكن منحصرة محاربة في الجهل، والأمية بل جعلتها تتبنى رهان محاربة التطرف، والعنف الديني، والتزمت المذهبي في تلك الفترة، ومن هنا جاء مفهوم الزاوية ليس كرديف بل كبديل لمفهوم الرباط بمعنى الانتقال من وظيفة الجهاد، إلى وظيفة التعليم، والتربية (الشهي)، وخاصة في بداية القرن السابع الهجري الموافق للقرن الثالث عشر.

2.2 السياقات المساعدة على نشأة الزوايا الصوفية في الساحل الإفريقي:

نشأة الزوايا الصوفية في الساحل الإفريقي كانت مقترنة بسياقات مختلفة تمثلت في الرحلات التجارية، التي كانت تنطلق من حواضر شمال إفريقيا باعتبارها حاضنة للمذهب المالكي، متجهة إلى عمق الصحراء في الساحل الإفريقي بواسطة الفقهاء؛ كالشيخ المغيلي، والشيخ الكنتي (الأمير، 2021)، والتجار الذين كانوا ينشرون تعاليم الإسلام، وخاصة التصوف وتعاليمه، ومن هنا يمكن القول بأن الظروف التي سمحت بنشوء الزوايا في منطقة الساحل الإفريقي، ليست نفس الشروط التي ساهمت في نشوءها، في المشرق العربي ذلك

لأن الأولى كانت لها وجهة مجتمعية، وثقافية تربوية تعليمية ساهمت في رقي التعاليم الصوفية، وسمحت لها بالانصهار الحضاري مع الحضارات الأخرى باعتبار التصوف في المغرب العربي كان نتاج تلاقح ثقافي بين منطقة شمال إفريقيا، والأندلس، بينما التصوف في المشرق العربي كان مبني على المجاهدة، والمشاهدة، وترويض النفس (لابيدوس).

الهدف من هذه الفكرة، أو المسح المفاهيمي، والتتبع التاريخي لنشوء الزوايا هو كيف يمكننا أن نحلل التراكم الثقافي، و الفكري الذي ساهم في نشأتها، وكيفية تحولها من مؤسسات تعليمية إلى مؤسسات دبلوماسية روحية تعد بمثابة قوة ناعمة للإسلام تساهم لكي تحقق بذلك عملية انتقال وظيفي حضاري يكمن في إنتاج إسلام وسطي كوني، وتسويقه للأخر باعتباره شريكا كونيا للإسلام والحضارة الإسلامية ومحاربا للإسلام الراديكالي المتطرف.

شكل(1) الخريطة الجغرافية لمنطقة الساحل الإفريقي :



مصدر شكل رقم (1): (الأمين، 2019)

3. الزوايا الصوفية وآليات إنتاج إسلام وسطي منفتح ومتعايش مع الآخر:

من خلال المتغيرات الدولية يمكن القول بأن الإسلام أصبح يعيش انتكاسة حضارية، وأزمة تواصل كوني عابرة للثقافات بسبب التصدعات التي عرفتها مجتمعاته، وتنامي الفكر الجهادي، والأصولي الراديكالي نتيجة ظهور الحركات الإسلامية الأصولية، باعتبارها منتمية للحضارة الإسلامية وفق رؤى بعض المراقبين، والمتابعين للشأن العام الإسلامي في الغرب، وبصفتها خصم إيديولوجي لتيار القومية العربية، وتبنها لفكر

عدائي للغرب، وكانت بواكير هذا التطرف تظهر في الفكر الجهادي، التكفيري الذي استند على مرتكزات إيديولوجية تنادي بضرورة تكفير مجتمعاتها، والمناداة بالجهاد ضد الغرب الكافر على حسب وصفهم، وتجلى هذا الفكر للعيان، إبان ثورة الخميني ضد نظام الشاه في إيران، الذي كان حليف الغرب، وعمل الخميني على إنتاج مفهوم سياسي لم يكن يهدف إلى محاربة الإمبريالية بل كان يسعى من خلاله على استمالة الشعوب الإسلامية ليس نصرته لها، وإنما بهدف تصدير أفكار الثورة الإسلامية من إيران وجعل التشييع السياسي هو أهم مرجع للمسلمين في نظريات الحكم، والسياسة ومحاولة أسلمة مفهوم ولاية الفقيه (لويس، 2013).

هذه الثورة خلقت أول صدام مباشر، وعلي بين الولايات المتحدة الأمريكية قاطرة الغرب، والنظام الإيراني باعتباره ثمرة من ثمرات، الأصولية السياسية المنغلقة في منطقة الشرق الأوسط، مما جعل بعض التيارات الجهادية، الأصولية الراديكالية تتحالف معه رغم الاختلاف المذهبي، والعقائدي لكن وجود عدو مهدد لقيام الدولة الإسلامية، أو بالأصح إعادة إحياء مشروع الخلافة (الموسوي).

على ضوء هذا التشويه الذي تعرض له الإسلام بسبب الغلو المذهبي، المبالغ في استعمال مفهوم الجهاد، جعل العالم الغربي يختزل صورة الإسلام في صورة الأصولية السياسية، كمصدر قلق للحضارة الغربية باعتبارها معول هدم، وأداة عنف تُمارس بهدف نشر قيم وأفكار لا تؤمن بالتواصل، والتخاطب بين الأديان، وفي هذا السياق الزمني الذي عرف بزوغ نجم الأصولية السياسية (Karoui, 2018) أصبح الإسلام بالنسبة للغرب عدوا لا يمكنه أن يتحول إلى صديق، وهذا ما أشار إليه المفكر الفرنسي، والمختص في الدراسات العربية الإسلامية مكسيم رودونسون في كتابه "جاذبية الإسلام" (رودونسون، 2003) ولكن مع الوقت تبين بأن المخرج الوحيد من هذا المأزق هو ضرورة تبني مشروع، أو عملية الإحياء المجتمعي للزوايا الصوفية باعتبارها مؤسسات تكوينية تُستعمل كفضاء قابل للتداول، والتحاقل بين المذاهب، والتيارات الدينية وإنتاج خطاب ديني يؤمن بالاعتراف، والتواصل مع الآخر.

1.3 أهمية الدور الحضاري للزوايا الصوفية في إنتاج إسلام وسطي معتدل:

الهدف من الرجوع إلى الزوايا أو اللجوء إليها بمعنى اصح، وأعمق ناتج عن الزخم الثقافي، والعرفاني الذي تستند عليه في وجهتها الحضارية التي تسعى من خلالها إلى ولوج النادي الكوني، الذي ينتج بدوره نظاما دوليا مؤسسا على المحبة، والسلم فالزوايا من هذا المنطلق عملت على إنتاج خطابات ومفاهيم واعية دينيا (Le 2017) soufisme ou alternative de l'entre-deux 1, 2017) تساهم بدورها في تقليص حجم العنف، والتطرف، ورأت بأن صحوة الإسلام لا تكون من خلال تبني مقاربات عدائية بل تبنت مقاربات روحية ثقافية تتميز بسرعة الانتشار، وسهولة التلقي عند الآخر ذلك لأنها تحمل في طياتها مبادئ الأمن والسلام الاجتماعي

(الطاف، 2017) وكان هذا الجهد يتجسد في الزيارات التي كان يقوم بها المشايخ، والمربين للغرب، وبعض الدول وإصدار بيانات، وأطروحات معادية للفكر الأصولي المنغلق المبني على التزمت، ونبد الآخر .

لقد حملت الزوايا الصوفية على عاتقها مشروع، أو تحدي إنتاج إسلام مستنير، ومنفتح حامل لأفكار راقية متعالية على العنف، والتطرف عن طريق استراتيجيات التكوين، والتلقين في الحواضر القرآنية، والزوايا مثلما حدث في منطقة توات في صحراء الجزائر حيث عمدت الزوايا على تفعيل التعليم القرآني، وعلوم الإمامة، وفنون الخطابة، وعلوم اللغة العربية (Khiari, 2015) بهدف خلق مصالحة روحية بين المسلم، وتراثه السمع الحنيف، والدليل على ذلك هو نجاح عملية المصالحة الوطنية في الجزائر بسبب العنف الذي عانى منه الشعب الجزائري بسبب انتشار، واستشرأاف أفكار العنف، والتطرف، والتكفير.

هذا المنجز الروحي، التربوي الذي حققته الزوايا في منطقتنا لم يسع إلى حقن الدماء، ووأد الفتنة بل سعى إلى بناء صرح ديني روحي يتجاوز المحيط الأفريقي ليتغلغل في الفضاء الأوروبي بحكم البنية العقلية للمسلم المتكون في الزوايا لما يحمله من قيم المحبة، والصفاء، والعمل على توضيح الصورة السامية للإسلام والمسلمين، والتأكيد بأن الإسلام لا يتنافى مع قيم الحضارة المدنية.

هذه التراكمات الثقافية التي حاولت الزوايا من خلالها أن تبعث روح الإسلام الحضارية لم تكن بالسهلة، أو الهينة؛ بل كانت نتيجة صراع طويل مع التطرف، والغلو بسبب مخلفات الأصولية في حرمها الأيديولوجية مع الغرب.

2.3: آليات إنتاج الإسلام الواسطي في منطقة الساحل الإفريقي :

إنتاج الإسلام الواسطي وفق منهج الزوايا ورؤيتها ، لا يكون من خلال تبني شعار أولوية العمل السياسي المؤدي في نهاية المطاف إلى الجهاد، الذي أفرز التصادم بين الغرب، والإسلام بسبب هيمنة المفاهيم العدائية المهددة للوحدة الوطنية لشعوب المنطقة، وخاصة منطقة الساحل الإفريقي، بل هو مبني على مفاهيم التربية، والتعليم والأخلاق التي تستقي أفكارها من تعاليم الدين المؤمن بالتنوع الثقافي، والاختلاف المذهبي .

هناك شواهد تاريخية تؤكد بأن التصوف، والزوايا الصوفية ساهما في إنتاج إسلام وسطي معتدل له مميزات كونية سمحت للمجتمع الإسلامي بأن يبين للعالم بأن التصوف هو منبع الإسلام الواسطي الحنيف، والشاهد التاريخي، والحضاري الذي يؤكد مساهمة الإسلام الصوفي في تعزيز السلم الدولي، واحترام حقوق الإنسان يتجسد في تجربة الأمير عبد القادر الجزائري الذي كان ينتهي إلى مدرسة صوفية توفق في الجمع بين المقاومة المسلحة التي حاربت المستعمر، وبين التسامح المكرس لثقافة السلم، والأمن (القادر، إسهام عبد القادر الجزائري في القانون الدولي الإنساني ، 2010).

يظهر هذا جليا للعيان من خلال مجهودات الأمير، التي منعت حدوث إبادة جماعية ضد المسيحيين في بلاد الشام، تحت غطاء الطائفية القومية، التي كانت تعبر عن مصالح السلطة العثمانية في بلاد الشام، هذا النموذج في صورة الأمير عبد القادر يعد بمثابة إرث تاريخي يفتخر به المتصوفة، وتسير على نهجه الزوايا والأخويات، من أجل ضمان استمرارية إنتاج إسلام منسجم محب للسلام، نأبذ للعنف.

هناك عدة آليات، واستراتيجيات تعمل على ضمان استمرارية الرسالة الحضارية للإسلام في إفريقيا والجزائر باعتماد مناهج تكوينية في مؤسسات تربوية مثل معاهد تكوين الأئمة، والخطباء في الجزائر مثل الزوايا، والمحاضر القرآنية، والتي تعد الصحراء الجزائرية على سبيل المثال هي الحاضنة الثقافية لهذه الزوايا التي تتخذ من الأمير عبد القادر الجزائري مرجعا في المحبة، والسلام، واحترام حقوق الإنسان، وتعزيز حوار الأديان (القادر، إسهام عبد القادر الجزائري في القانون الدولي الإنساني، 2010).

4- الدبلوماسية الروحية ودورها في تسويق نموذج الإسلام الواسطي كبديل عن الأصولية المتطرفة:
الدبلوماسية الروحية هي أهم منجز ثقافي عرفه التصوف عامة، والزوايا الصوفية خاصة بحكم فعالية الخطاب الصوفي في نشر تعاليم، وقيم الدين الإسلامي الحنيف التي تنادي بالتسامح، والتواصل الحضاري.

1-4 العوامل المؤثرة في فاعلية الدبلوماسية الروحية :

من بين العوامل المؤثرة في فاعلية الدبلوماسية الروحية هو الحوار الديني بين الشعوب، والثقافات مما جعل الإسلام يخرج من محيطه العربي، ليصل إلى أوروبا، وجُل المعمورة، وهذا ناتج عن سبب تاريخي ساهم في تَشَكُّل الدبلوماسية الروحية باعتبارها نتاجا للتواصل الفقهي، والديني بين علماء المشرق والمغرب العربيين والأندلس، مما سهل تشكيل هذه المؤسسة الدينية العقلانية التواصلية التي تسمح بالتواصل مع الآخر على أساس التفاهم و الحوار المتبادل.

من هنا يمكن القول بأن نموذج الإسلام المستنير المنفتح لا يمكنه أن يصل إلى الضفاف الأخرى، إلا عن طريق دبلوماسية روحية، متمثلة في الزوايا الصوفية، والمساجد التي تمثل التصوف، والأخويات التي تعتمد أساليب الدبلوماسية العامة، ومنهج مخاطبة الشعوب لا المؤسسات الرسمية من خلال تنظيم ملتقيات، وندوات تسوق المشروع الكوني للزوايا الصوفية باعتبارها مؤسسات روحية، وثقافية تنتج إسلاماً تواصلياً وتسعى إلى تسويقه للغرب تحت شعار تحقيق السلم الدولي، وتنمية ثقافة السلام. (أحمد).

فالدور المنوط بهذه الدبلوماسية لا يكمن في الترويج للإسلام الواسطي بل يبين الدور المجتمعي الذي تقوم به الزوايا من أجل محاربة التطرف الديني الذي أفرزه التعصب المذهبي، والتزمت الطائفي، والهدف من الدبلوماسية الروحية كذلك تفعيل الحوار بين الأديان وإنتاج خطاب ديني مُعَقَّلَن Rationalisé يؤمن بالقيم الإنسانية.

2-4 الدبلوماسية الروحية وأهميتها في النظام الدولي :

استطاعت الدبلوماسية الروحية أن تتموقع في النظام الدولي بحكم أهميتها كفاعل مؤطر، ومنتج للعلاقات بين الشعوب ذلك لأنها تسعى إلى فرض، وترسيخ ثقافة السلم، وهذا الفعل الدبلوماسي الدولي لا يمكنه أن يحقق وجوده بمعزل عن الحضور الديني، والمتمثل في الإسلام الصوفي الذي يمارس علاقات تواصلية على أساس المحبة، والتضامن (Devin, 2015) الذي يعد بمثابة أرضية ثقافية، وفكرية لمشروع السلام الدولي، وحتى العالمي الذي يؤمن بتبادل الإنسانية، والاحترام بين الشعوب (Chélini-Pont, Roland, & Valentine, 2019).

قدرة الدبلوماسية الروحية في تسويق نماذج الإسلام الوسطي لا تكمن في قدرتها على نشر الأفكار السلمية، بل استطاعت بكل نجاح، وتَفُوق بأن تُقدم للعالم الغربي صورة حضارية عن الإسلام السمح، المتعالي على الرجعية، والتخلف، والترويج للأخلاق الإسلامية التي تقدر الحريات، واحترام الديانات السماوية بصفتها إرثاً كونياً مشتركاً بين الإنسانية، وواقع هذا التفوق الدبلوماسي للزوايا، نجده في التواصل بين مؤسسة الفاتيكان، وفروعها ببعض الزوايا في إفريقيا، والجزائر، وذلك بالاعتماد على الفعل الديني، ودوره في تعزيز التواصل بين الأديان، ولعبه دور الفاعل الأساسي في العلاقات الدولية. (Chélini-Pont, Roland, & Valentine, 2019)

ويري مراقبون في مجال التنظيمات الدينية بأن الدبلوماسية الروحية تمكنت من أن تجد لنفسها مكانة في نظام العولمة الثقافية حيث أصبحت تنسجم مع المتغيرات الدولية؛ واستطاعت الشبكات الدينية التابعة للزوايا الصوفية أن تتجاوز حدود دولها، وتتغلغل في العالم الخارجي بسبب حنكة وفعالية مريديها، وعملهم الدعوي المثمر بسبب اعتمادهم على خطاب ديني منفتح مؤسس على أساليب الحوار، والنقاش بهدف تجسيد، وترسيخ مشروع تواصل الثقافات التي تعبر عن قيم الأديان التي تنتمي إليها، وهذه التنظيمات، أو الشبكات الدينية سرعان ما تبلورت وتشكلت في صورة مؤسسات دبلوماسية روحية هدفها التسويق، والتعريف بالإسلام كدين يؤمن بالحوار، ومَد جسور المحبة، واستطاعت هذه المؤسسات بأن توضح للعالم الغربي بأن التطرف، والعنف الديني دخلاء على الدين الإسلامي الحنيف، ولا يمتون بأي صلة للشعوب الإسلامية، والتعريف بالزوايا باعتبارها المعقل، والمنبت الأصلي للإسلام الوسطي المعتدل في معتقداته ومنهجه المنسجم مع الحضارة الكونية والمتكيف مع الأديان والشعوب (Chélini-Pont, Roland, & Valentine, 2019)

إنتاج وتسويق نموذج الإسلام الوسطي عن طريق عملية التوليف بينهما تسمح للزوايا في منطقة الساحل الإفريقي، والجزائر على سبيل المثال لا الحصر بأن يتجاوز بيئته الثقافية والاجتماعية، ويكون إسلام منسجماً، ومتكيفاً مع القيم الكونية الحضارية، وهذا يبقى دائماً في عملية الإنتاج حيث تساهم الزوايا بشكل كبير، ومثمر يتجلى في تبنيها لإستراتيجية فعالة تمكّنها من تبني قيم الحداثة، والانفتاح، والتي بدورها تسمح

بتحقيق معايير تساهم في بلورة، وإنتاج نموذج إسلام وسطي يؤكد بأنه لا يتبنى مواقف معادية لحركة التاريخ الخاص بالمسار الحضاري، والكوني للشعوب، والأمم التي تلتقي في نقطة محورية واحدة، وهي الإنسان المؤمن بالسلام والحوار (Lincot, 2021)

هذا من حيث وظيفة الإنتاج أما في ما يخص عملية، أو وظيفة الدبلوماسية الروحية كونها ناطقا رسميا للزوايا، وحاملة لأفكارها تساهم في تسويق الإسلام الواسطي عن طريق تبنيها لمقاربات عصرية، وأنية فرضتها الثورة الرقمية على الزوايا في إفريقيا، والساحل الإفريقي والجزائر بصفة عامة واحتكاكها بالتقنية وهذا ما أكسبها القدرة، والكفاءة على عقد ملتقيات دولية، وندوات داخل، وخارج الدول التي تنتهي إليها كالزاوية التيجانية، والقادرية في الجزائر، وتسويق هذا النموذج الحضاري يكون بسبب مجهودات المريدين الفاعلين، المنتسبين لهته الزوايا إضافة إلى ذلك؛ فإن هذه الزوايا لها حسابات في مواقع التواصل الاجتماعي، وتنشئ العديد من المواقع الإلكترونية بل يوجد مكاتب إعلامية لها حيث تعمل من خلالها على توضيح رؤيتها العامة وتعرّف بأهدافها خارج الحدود، وهذه المقاربات كلها تستعمل من أجل تفعيل عملية التسويق واختصار أفكار، ومنهج الزوايا في فكرة واحدة، وهي المحبة والسلام التي تحقق الاندماج (devin, 2015) بين الشعوب والأديان، ومن هنا يمكن القول بأن دور الدبلوماسية الروحية التي تستند على الفعل الديني يندرج تحت إستراتيجية خلق الاستقرار، ودعم سبل السلام من أجل جعل منطقة الساحل الإفريقي منطقة جلب للاستثمارات، وذلك بتوفير عاملي الاستقرار السياسي، والأمن الاجتماعي.

5- الزوايا الصوفية وإستراتيجيات تقليص نفوذ التطرف و طرح فكرة إسلام اجتماعي وثقافي في الساحل الإفريقي:

لا تزال فكرة الإسلام الواسطي تثقل كاهل المؤسسات الدينية، والفاعلين في منطقة الساحل الإفريقي، التي لا تزال تعيش الأزمات التي أفرزتها التيارات التكفيرية الراديكالية، والتي عطّلت مشروع التنمية، والتقدم في الساحل الإفريقي، وهذا ما نقرّ المؤسسات الاستثمارية الدولية من المنطقة، وذلك راجع إلى انعدام الأمن، وتهديد هذه الجماعات لمصالح الهيئات الدولية المستثمرة، ومن هنا جاء دور الزوايا الصوفية لكي تقوم بتسويق نموذج إسلام ثقافي، واجتماعي متعايش كبديل عن الأصولية الدينية المقلقة للآخر بحكم عدم قابليتها للتعايش، والتواصل، وغير مؤمنة بالتعددية الثقافية (علي).

إنّ الإسلام الثقافي في هذا السياق جاء لي طرح منظومة فكرية منسجمة مع المتغيرات الدولية، ومتأسسة على قيم المحبة مستندا في ذلك على أرضية مفاهيمية تنتج مفاهيم مدنية تؤمن بالأنسنة، والسلم، وهذه المنظومة لا يمكن جلبها من ثقافة مغايرة للإسلام بل هي موجودة في ثقافته وتراثه، التي صنعت الدول، والحضارات، وصروحها التي شيدت من طرف عقل إسلامي انسجم في لحظة تاريخية معينة مع فكرة التعدد،

والتنوع الثقافي المكون للفضاء العام الثقافي الإسلامي، الذي كانت ركيزته التواصل المجتمعي، واحترام العقائد الأخرى، وتبني روح الإسلام الحنيف المنسجم مع باقي الأديان حضاريا لا دينيا، هذا الدور لا يتحقق إلا بتوفر الشروط الثقافية التي تسمح بتشكيل الانفتاح الاجتماعي للمجتمع المسلم، ونبذ الأصولية المتزمتة (ويلم، 2001).

هذه المقومات التي يستند عليها الإسلام الثقافي، والاجتماعي لا تكمن في محاولته لإعادة إحياء القيم الحضارية، والجمالية للإسلام بل يسعى إلى خوض غمار معركة حضارية، إنسانية الغاية منها هي محاربة الدوائر المنتجة للأفكار الأصولية (ويلم، 2001)، التي تؤطر التطرف، والعنف الديني السياسي الذي يعبر عن مصالح ضيقة، وتقليص نفوذ الأصولية المتطرفة ليس بالأمر السهل بحكم تغلغلها في الأوساط الهشة التي طالها، الفقر كذلك قساوة البيئة، والمناخ في المنطقة الإفريقية، وهذه الظروف سهلت عملية انتشار الأفكار المتطرفة ذلك ليس لأن الزوايا الصوفية لم تقم بدورها بل تعرضت لهجوم حاد، وللدمار، والنهب مثلما حدث لبعض الزوايا، والحوضر القرآنية في إفريقيا، ومنطقة الساحل الإفريقي، وحتى في الجزائر على غرار تومبوكتو في مالي، والتي تعرضت خزائنها، ومخطوطاتها للنهب من طرف التكفيريين، والأمثلة كثيرة التي سنحاول توضيحها في الإستراتيجيات، والمقاربات المعتمدة من أجل مواجهة هذا الفكر الهدام، وتقليص نفوذه في المناطق التي لا تزال تعاني من الفوضى، وغياب الأمن الاجتماعي، وكذلك غياب الحوكمة السياسية التي تؤدي إلى الفساد، والفقر الذي يصبح بدوره حاضنة اجتماعية للتطرف .

5-1- الإستراتيجيات والمقاربات المعتمدة في محاربة التطرف وتقليص مجالات نفوذه :

من بين الإستراتيجيات التي تبنتها الزوايا الصوفية ، والمؤسسات الدينية التابعة لها في الحد من تنامي الأفكار المتطرفة، وتقليص نفوذها الجغرافي، والفكري عمدت هذه الأخيرة على تبني مشروع التجديد الذي يحاول التوفيق، والتوليف بين القيم الإسلامية، والكونية في ظل الواقع المعاش مما سهل على الزوايا عملية التفاعل مع العولمة الثقافية، والاجتماعية، ونشر أفكارها، وخطاباتها المناهضة للفكر الراديكالي عن طريق الانترنت، والهيئات، والمنشورات التي تبين مدى قوة الحضور الثقافي، والاجتماعي للزوايا في منطقتها.

هذه الإستراتيجيات ليست مستحدثة، أو وليدة ظروف فرضها الواقع بل موجودة في الثقافة الإسلامية لكن الزوايا عملت على إحيائها، وبعثها من جديد عبر آليات، ومناهج تسهل وصولها للمتدين المسلم وتأسيس مؤسسات، وهيئات تمارس مهام التثقيف الديني بالأفكار المنادية للتسامح، والمحبة والسلام والاستثمار في العنصر البشري الذي يعد محور مشروع التربية، والتعليم من خلال تعميم، وترسيخ مفهوم الأخوة الذي يُعدّ أول منطلق حضاري تأسست عليه الزوايا باعتبارها أداة، أو مؤسسة تقوم بوضع الدين في إطاره الاجتماعي، والثقافي المخالف والمجابه للفكر الأصولي الراديكالي الموجود في المنطقة (ليجيه و جون بول، 2005).

في سياق المقاربات المعتمدة سنحاول أن نشخص الدور الميداني المجتمعي الذي تقوم به الزوايا في مواجهة التطرف والإرهاب في المجتمعات الإفريقية، وخاصة التي عرفت نوعا من الأزمات الدينية بحكم تواجد هذه التيارات على أراضيها، وهذا الدور لم يكن على صعيد التنظير، والخطابات فقط بل عملت الزوايا على تبني روح المبادرة، والالتزام الوطني من أجل الحفاظ على الهوية الثقافية (ليجييه و جون بول، 2005) والاجتماعية للشعوب المغاربية، والإفريقية بتوظيف آليات فعالة مثل التواصل الجوّاري، ونشر الوعي وتكوين أئمة، وإنشاء معاهد لتكوينهم، والعمل على بناء مساجد أقطاب ليسوا فقط لأداء الصلوات بل توجد فيها مكتبات، ومرشدين، ومجالس علمية للفتاوى كما هو الحال في الجزائر دون أن ننسى عملية إحداث مؤسسات تمارس التوجيه، والرقابة في المجتمع مثلما هو موجود في الجزائر، وهي المراكز الإسلامية الجوّارية، والمديرية العامة للثقافة الإسلامية على مستوى وزارة الشؤون الدينية، والأوقاف التي تراقب الكتب والمطبوعات ذلك لأنه في الماضي كانت كتب ومطبوعات الفكر الأصولي الراديكالي تتميز بسرعة الانتشار في الأوساط الاجتماعية المختلفة، وذلك راجع إلى غياب مثل هذه المؤسسات التي تمارس الرقابة ليس من باب تقييد الحريات، وإنما من أجل الحد من تنامي، وتقديم الفكر الجهادي .

هذا الدور الذي تقوم به السلطات الجزائرية من خلال تمكين الزوايا من العمل الحر في المجتمع يندرج في إطار دورها الوظيفي، والمتمثل في التحقيق والحفاظ على التماسك المجتمعي للشعب الجزائري (رشا، 2018) بتبني القيم الوسطية، والمعتدلة، وهذه المقاربة الجزائرية في مكافحة التطرف هي محل ترحيب وتقدير من طرف الهيئات الإقليمية، والدولية عن طريق تجسيد أفكار الإسلام الثقافي، والمجتمعي باعتباره صمام أمان للمجتمع، وعامل طرد للراديكالية .

ما يمكن قوله في هذا العنصر المهم هو انه يجب على الخطاب الصوفي أن يكون أكثر إيجابية وعملي بهدف تجفيف منابع التطرف في منطقة الساحل الإفريقي، ومن أجل إنجاح هذه الإستراتيجية على أرض الواقع يجب وضع الزوايا في دائرة العمل المجتمعي، وإعادة موضعها في الفضاء العام باعتبارها فاعلا مساهما في الشؤون العامة، وتمكين المجتمع من تبني، وفهم الأساليب الحضارية، والاجتماعية التي تسعى من خلالها الزوايا الصوفية خلق الأمن الاجتماعي .

من بين المقاربات المهمة بهدف تقليص نفوذ الفكر الراديكالي هي مقارنة إشراك الزوايا في العمل الجماعي، وخلق تنسيق بينها، وبين جمعيات المجتمع المدني، وضمان الحضور الصوفي في المجتمع و تأطير الممارسات الدينية العقلانية التي تدين كل أشكال العنف، والتطرف، وإنتاج خطاب ديني مجتمعي يضمن الوحدة المجتمعية، ويعزز قيم المواطنة هذا على الصعيد المجتمعي، وفي السياق الأكاديمي لقد تفتنت بعض الدول إلى إخراج الزوايا، من فضائها المحدود جغرافيا وعملت على ربطها بالمؤسسات العلمية والفكرية. من هنا

جاءت فكرة خلق تنسيق بين الزوايا الصوفية والجامعات، وحتى المعاهد الفكرية، والقيام بنشاطات علمية مشتركة كالملتقيات، والندوات العلمية، وأصبحت الجامعات هي المنبر العلمي، والثقافي لها وناطقها الرسمي في المحافل العلمية داخل، وخارج الدول التي تنتهي إليها .

هذا النوع من التنسيق بين هيئات المجتمع المدني، والجامعات والزوايا استطاع بشكل أساسي تقليص نفوذ الإسلام الراديكالي في المنطقة ، والساحل الإفريقي حيث سمح هذا التنسيق بخلق نوع من التواصل بين شعوب المنطقة تحت غطاء السياحة الروحية التي سمحت للمجتمعات الأفريقية، بأن تعرف بنفسها وثقافتها، ومرجعيتها الدينية على أرضها بحكم أنها تستقبل السياح في أرضها كالزاوية التيجانية والقادرية فهذه الآليات أسهمت في إجهاض المشروع الإقليمي، والدولي للإرهاب، وإسقاط مشروع الدولة الإسلامية، وتنظيم القاعدة في المنطقة.

هذا العمل الجماعي بين مختلف الأطراف الفاعلة في مجال مكافحة التطرف عن طريق صياغة خطاب ديني وسطي ليس مغايرا وإنما مناهض للفكر الجهادي، وتشكيل مؤسسات تنشئة تعمل على تكوين أئمة ومختصين في تفسير الظاهرة الدينية لهم القدرة على تسويق أفكارهم بواسطة الدورات التكوينية، والورشات التكوينية من طرف الهيئات الوصية والخلاصة العامة؛ من هذا التزاوج بين المؤسسات العلمية والزوايا أنه يهدف إلى إنتاج نوع من التحالف بين الخطاب الأكاديمي، والخطاب الصوفي من أجل فهم، وتشخيص الواقع الاجتماعي، وإنتاج ثقافة روحية تكون بمثابة حاجر فكري منيع يتصدى للأفكار الهدامة للوحدة الاجتماعية والهوية الثقافية.

الإسلام الثقافي، والاجتماعي هو البديل الحضاري للفكر الأصولي المتطرف المقلق للآخر ليس فقط الغرب وإنما باقي التيارات الدينية التي تختلف معه عقائديا، وفقهيا، وهذا ما أفرزه الفكر الراديكالي بإفرازه لنمط علاقات عدوانية لا تعترف بالحوار، والتواصل الاجتماعي والحضاري، ومن هذا المنطلق نحن نرى بصفتنا كباحثين في مجال علم الاجتماع الديني نؤكد وجهة نظرنا العلمية بأن التطرف، وأشكال الأصولية هي مصدر مهدد للوحدة الوطنية لدول الساحل الإفريقي ، وباقي المجتمعات الإسلامية، والهوية الثقافية بسبب طرح أفكار لا تنسجم مع طبيعة البنية الفكرية للإسلام الوسطي .

وأهم حل يُمكن الزوايا الصوفية من تقليص نفوذ الفكر المتطرف هو ضرورة إشراك المراكز البحثية، والدوائر الفكرية، وإنتاج دراسات علمية أكاديمية تسمح بتعزيز الحضور الصوفي في مجتمعات منطقة الساحل الإفريقي عن طريق صياغة إستراتيجيات بعيدة المدى تتجسد في إنتاج، وتأطير نموذج فكر منفتح على الثقافات الأخرى، ودعمها بكوادر علمية مثقفة تستطيع بلورة رؤية دينية إسلامية متكيفة مع قيم الحضارة الكونية يكون الإنسان هو مركزها.

فالتصوف ومؤسساته الدينية التربوية ملزمون بتطبيق أفكارهم السمحة على أرض الواقع، وخلق عملية انتقال من الخطاب الصوفي إلى الفعل الصوفي الملتزم الذي يسهم بدوره في إنتاج منظومة روحية ثقافية واجتماعية تُمكن الدين الإسلامي بأن يكون مصدر إلهام للتيارات الدينية في العالم الإسلامي، وتبني ثقافة السلام كرسالة، ومهمة حضارية تعمل الزوايا على نشرها في المجتمع الدولي وفق ما تقتضيه تعاليم، ووصايا الدين والنبي محمد الذي تبني خطاب كوني عابر للثقافات، والحضارات يؤمن بقيم السلام والتعايش (devin, 2015) (رشا، 2018).

لذلك فإن الدور المنوط بالزوايا هو دور حضاري ثقافي وليس دورا سياسيا، وأن محاربة الفكر الراديكالي لا تقتصر على الخطاب الدعوي بل تعتمد على الفعل التربوي، والتكويني للفاعلين في المجال الديني الصوفي والعمل على خلق تنسيق بين المؤسسات الصوفية بمعنى الزوايا، والمؤسسات المجتمعية كالمسرح و الفضاءات المجتمعية، والعمل على تسويق، وإعادة إنتاج التراث الصوفي في المجتمعات الإسلامية وتحقيق التواصل الهوياتي بين الزوايا، ومجتمعاتها التي تنتمي إليها.

عمل الزوايا الصوفية من أجل تعميم الثقافة الصوفية المؤمنة بالسلم، والمحبة لا يكون من خلال تكوين المريدين وتجنيدهم بل يجب أن يعمم على جميع أفراد المجتمع، والهيئات الفاعلة بغية الترويج، والدعاية للفكر الصوفي الحضاري، المدني بالاعتماد على ترسانة إعلامية تسوق الفكر الوسطي، المعتدل مثل إنشاء قنوات فضائية وإذاعات تُعد بمثابة منابر ثقافية واجتماعية للزوايا هدفها تأطير الممارسات الدينية العقلانية التي تتنافى مع التطرف والإرهاب.

6. خاتمة:

يتضح مما سبق، بأن الزوايا تلعب دورا مهما، وفعالا في محاربة التطرف في منطقة الساحل الإفريقي، بحكم تواجدها التاريخي، وهذا يعكس مدى استمرارية رسالتها الحضارية، التي تسعى إلى حفظ الوحدة الوطنية والسيادية لشعوب، ودول منطقة الساحل ذلك لأنها تراهن على الخطاب الديني المعتدل، والمنفتح الذي يقصي كل قيم التطرف، والعنف وهذا كله راجع إلى نجاعة إستراتيجياتها المعتمدة والتي تتمثل في دورها الحضاري، والتكويني، وتبنيها لمقاربات وآليات ساهمت في إنتاج نموذج تدّينٍ وسطي ساهم في تقليص نفوذ التطرف، ومن بين هذه المقاربات كذلك الدبلوماسية الروحية باعتبارها كأداة لتسويق قيم الفكر الصوفي الذي يؤسس لقيم السلام، والتعايش .

من هنا ،وعلى ضوء ما عرضناه في هذه الدراسة يمكننا استخلاص النتائج الآتية :

دور الزوايا الصوفية ، في محاربة التطرف مرهون بمدى الاهتمام الذي تتلقاه من دول منطقة الساحل الإفريقي، ففعاليتها مقترنة بوجود إرادة سياسية، وهي لا تزال تعاني نوع من التهميش، من حيث إشراكها في القضايا العامة المتعلقة بدول منطقة الساحل، وخاصة إشراكها المباشر في إدارة الأزمات السياسية بين الفرقاء في المنطقة ،دون أن ننسى بأن مشروع الدبلوماسية الروحية هو مشروع سياسي جديد لذلك لا يمكننا أن نحكم عليه في المدى القريب،زيادة على هذا الزوايا فإن الصوفية تحتاج إلى نوع من التسويق الثقافي لكي تلقى سرعة انتشار في أوساط شعوب المنطقة ، واهم نتيجة نستخلصها في هذه الورقة ،هو أن الزوايا الصوفية هي آخر حصن لا يزال صامد في وجه التطرف الذي يخدم مصالح أجندات دولية وإقليمية في منطقة الساحل الإفريقي .

قائمة المراجع :

Bibliographie

- Chélini-Pont, B., Roland, D., & Valentine, Z. (2019). *géopolitique ses religions un nouveau role des religieux dans les relations internationales* . le clavier .
- Devin, G. (2015). *10 concepts sociologiques en relations internationales*. PARIS: CNRS éditions.
- devin, G. (2015). *10 concepts sociologiques en relations internationales* . Paris : CNRS édition .
- Karoui, H. E. (2018). *la fabrique de L'islamisme* . institut de Montaigne .
- Khiari, B. (2015). *Le soufisme :spritualité et citoyenneté*. fondation pour l'innovation politique.
- (2017). *Le soufisme ou alternative de l'entre -deux 1*. comitéMoyen-Orient -ANAJ-IHEDN.
- Lincot, E. (2021). *Diplomatie et religion focus sur le cas indonésien*. PARIS: IRIS.

- أبو القاسم سعد الله. (1998). *تاريخ الجزائر الثقافي* . بيروت: دار الغرب الإسلامي .
- إخلفينا ولد محمد الأمين. (2019). *الطريقة الحموية في الساحل الإفريقي جزء من الحالة الصوفية بموريتانيا و مالي* . الدوحة : مركز الجزيرة للدراسات .
- أيرام لا بيدوس. *تكايا الدراويش الصوفية والفنون والعمارة في تركيا العثمانية* . أبو ظبي : كلمة .
- برنارد لويس. (2013). *أزمة الإسلام الحرب الأقدنس والإرهاب المندس ، رؤية المحافظون الجدد واليمين الأمريكي للإسلام* . دمشق: صفحات للدراسات والنشر .
- جون بول ويلم. (2001). *الأديان في علم الاجتماع* . بيروت : المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر و التوزيع .
- دانيال هيرفيه ليجيه، و ويلام جون بول. (2005). *سوسيولوجيا الدين* . القاهرة : المشروع القومي للترجمة .
- دوحة عبد القادر. (2010). *إسهام عبد القادر الجزائري في القانون الدولي الإنساني* . مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ ، 299.
- دوحة عبد القادر. (2010). *إسهام عبد القادر الجزائري في القانون الدولي الإنساني* . مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ ، 301.
- روايح رشا. (2018). *الخطاب الصوفي ودوره في مكافحة التطرف و صناعة السلام العالمي*. مجلة الإحياء ، 314.

- سيدي أحمد ولد الأمير. (2021). *الطرق الصوفية في غرب إفريقيا السياقات الاجتماعية و الأدوار السياسية*. الدوحة : مركز الجزيرة للدراسات .
- طاهري أمحمد. (بلا تاريخ). الأمير عبد القادر الجزائري ومشروع السلام العالمي في الدراسات الأمريكية قراءة في كتابات المؤرخ جون كيزر . *مجلة الإستيعاب* ، 138.
- عبد العزيز الشهي. *الزوايا والصوفية والعزابة و الإحتلال الفرنسي للجزائر*. وهران : دار الغرب للنشر والتوزيع .
- عبد الكريم عثمان علي. *معالم الرحمة بين الإسلام والتعددية الثقافية* . قسم الدراسات الإسلامية .
- محمد الطاف. (2017). دور التصوف في الأمن والسلام الاجتماعي . *مجلة القسم العربي جامعة البنجاب لاهور باكستان* ، 262.
- مكسيم رودنسون. (2003). *جاذبية الإسلام*. لبنان: دار التنوير للطباعة والنشر .
- موسى الموسوي. *الثورة البائسة* . مكتبة الإسكندرية .